

تَقُولُ : « تَعَاظَمَنِي الْأَمْرُ » أَيُ : هَالَنِي وَعَظَّم عَلَيَّ ، وَ « تَعَاظَمْتُهُ » أَيُ : « اسْتَعْظَمْتُهُ وَأَنْكَرْتُهُ » ، وَلَفْظُ « أَبِي دَاوُدَ » : « مَا نُعْظَمُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ » مِنَ الْأَعْظَامِ بِمَعْنَى الِاسْتِعْظَامِ ، أَيُ : نَعُدُّ التَّكَلَّمَ بِهِ ذَنْبًا عَظِيمًا ، فَتُنَزَّهِ عَنْهُ أَلَسْتَنَّا لِقُبْحِهِ وَشَنَاعَتِهِ .

لَمْ يَجْرُؤُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنْ يُصْرِّحَ بِأَعْيَانِ تِلْكَ الْخَوَاطِرِ الَّتِي اغْتَرَبَتْهُمْ ، حَتَّى بَلَغَتْ بِهِمْ شِدَّةُ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا يُفَسِّرُهُ لَنَا حَدِيثُ « ابْنِ عَبَّاسٍ » عِنْدَ « أَبِي دَاوُدَ » قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ! » إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ يَغْرُضُ بِالشَّيْءِ لِأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ » الْحُمَمَةُ - بَضْمٌ فَفَتَحَ - : وَاحِدَةُ الْحُمَمِ وَهُوَ الْفَحْمُ وَكُلُّ مَا اخْتَرَقَ مِنَ النَّارِ ، وَالضَّمِيرُ فِي « لِأَنْ يَكُونَ » لِلْأَحَدِ ، وَاللَّامُ فِيهِ لِلْإِبْتِدَاءِ أَوْ الْقَسَمِ أَيُ : وَاللَّهُ ! لِأَنْ يَخْتَرِقَ أَحَدُنَا حَتَّى يَصِيرَ فَحْمًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ التَّكَلَّمَ بِذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ ، فَضْلًا عَنِ الْأَعْتِقَادِ بِهِ .

لَكِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ بُعِثَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ كُلَّ مَا يَغْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لَمْ يَجِدْ حَرَجًا أَنْ يَذْكُرَ لَنَا بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ مِثْلًا مِمَّا يَجِدُهُ النَّاسُ فِي صُدُورِهِمْ ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » عَنْ « أَبِي هُرَيْرَةَ » : « يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : « مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ » « مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ » حَتَّى يَقُولَ : « مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟ »

وَفِي رِوَايَةٍ لَّهُمَا « لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : « هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ ؟ » . وَيُقَاسُ عَلَى هَذَا الْخَاطِرِ مَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْهُوَاجِسِ فِي أَمْرِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْأَعْتِقَادِيَّةِ .  
« قَالَ » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« أَوْ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » : اسْتَفْهَمُ تَقْرِيرِي ، وَالْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى مُسْتَفْهَمٍ عَنْهُ مَحذُوفٌ ، أَيُ : « أَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْوَسْوَاسُ ؟ وَقَدْ وَجَدْتُمْ مِنْهُ فِي صُدُورِكُمْ هَذَا الانْقِبَاضَ وَالْاِشْمِزَازَ ؟ يُشِيرُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ حَدُوثُ الْوَسَاوِسِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وَهُوَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِنَشْرِحِ لَهَا صُدُورُهُمْ ، أَوْ لَتَزْيِغِ بِهَا قُلُوبَهُمْ ، وَمَنْشَأُ هَذِهِ الْإِشَارَةِ تَعْبِيرُهُ بِكَلِمَةٍ : « قَدْ » الَّتِي يُجَاءُ بِهَا فِي الْكَلَامِ لِتَحْقِيقِ أَمْرٍ يُنْتَظَرُ وَقُوعُهُ . تَقُولُ : « جَاءَ فُلَانٌ » إِذَا كَانَ السَّامِعُ خَالِي الذَّهْنِ مِنْ مَجِيئِهِ وَعَدَمِهِ ، فَإِذَا كَانَ مُتَشَوِّفًا لِخَبَرِ مَجِيئِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَهُ قُلْتَ : « قَدْ جَاءَ فُلَانٌ » .

« قَالُوا : « نَعَمْ » يَا رَسُولَ اللَّهِ ! « قَدْ وَجَدْنَاهُ وَأَنْكَرْنَاهُ .

« قَالَ » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » : هَهُنَا مَرْجِعَانِ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ بِحَسَبِ اللَّفْظِ فَإِنَّ كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُوَ انْكَارُ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَاسْتِعْظَامُهَا وَالْخَوْفُ مِنْ

النُّطْقِ بِهَا فَضْلاً عَنِ اعْتِقَادِهَا فَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ صِحَّةِ  
 الْإِيمَانِ ، وَخُلُوصِهِ مِنْ شَوَائِبِ الشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ . رَغِمَ التَّشْكِيكُ الَّذِي  
 يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ . أَمَّا إِنْ كَانَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ هُوَ حَدُوثُ تِلْكَ الْوَسَاوِسِ  
 كَمَا هُوَ ظَاهِرُ حَدِيثِ « مُسْلِمٍ » عَنْ « ابْنِ مَسْعُودٍ » قَالَ : « سُئِلَ رَسُولُ  
 اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْوَسْوَسةِ ، فَقَالَ : « تِلْكَ مَخْضُ  
 الْإِيمَانِ » <sup>(١)</sup> قَرُبَمَا عُدَّ مِنَ الْمَشْكِلِ الْمُحْتَاجِ إِلَى بَيَانٍ ، إِذْ كَيْفَ  
 تَكُونُ الْوَسْوَسةُ مَخْضَ الْإِيمَانِ أَوْ عَلَامَةً مَخْضِ الْإِيمَانِ ؟

وَبَيَانُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا أَنْوَاعُ الْوَجْدَانَاتِ السَّيِّئَةِ  
 الَّتِي تَعْتَرِي الْمَرْءَ فِي الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ ، وَعَلَى أَيِّ نَوْعٍ مِنْهَا يَقَعُ  
 اسْمُ الْوَسْوَسةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ .

وَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْوَجْدَانَاتِ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

( أَحَدُهُمَا ) : ضَارٌّ ، بَلْ خَطِرٌ ، يَهْدِمُ بُنْيَانَ الْإِيمَانِ . وَهُوَ مَا كَانَ  
 إِحْبَاءً بِشُبْهَةٍ مُعَيَّنَةٍ تُوجِبُ رَيْبَةً فِي أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَلَمْ تَجِدِ  
 النَّفْسُ حَلًّا لِتِلْكَ الشُّبْهَةِ بَلْ وَجَدَتْ مِنَ الْعَقْلِ تَأْمِينًا عَلَيْهَا . وَمِنْ  
 الْقَلْبِ رُكُونًا إِلَيْهَا فَاسْتَرْسَلَتْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا ، فَهَذَا  
 الضَّرْبُ لِأَنْسَمِيهِ وَسْوَسةٌ بَلْ إِنْ نُسِبَ إِلَى مُضْدِرِّهِ وَقَاعِلِهِ سُمِّيَ لِمُغْوَاةِ  
 وَتَضْلِيلِهَا . وَإِنْ نُسِبَ إِلَى مُؤَرِّدِهِ وَقَائِلِهِ سُمِّيَ غِيًّا وَضَلَالًا وَذَلِكَ هُوَ

(١) « صحيح مسلم : ١١٩/١ - (١) - : كتاب الإيمان - (٦٠) - : باب : بيان الوسوسة

سُلْطَانُ « الشَّيْطَانُ » الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : ( إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ) (١) .

( الثاني ) وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَسْوَسَةِ أَوْ حَدِيثِ (٢) النَّفْسِ ، هُوَ مَا لَمْ تَجْتَمِعْ فِيهِ تِلْكَ الصِّفَاتُ بَلْ تَجَرَّدَ مِنْهَا كُلًّا أَوْ بَعْضًا . فَمُخَالَفَتُهُ لِلضَّرْبِ الْأَوَّلِ عَلَى صُورِ ثَلَاثَ :

- الصُّورَةُ الْأُولَى - : أَنَّ يُخَالَفَهُ فِي أَصْلِ مَوْضُوعِهِ وَيَفْتَرِقَ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ الطَّرِيقِ . وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَعَلَّقْ بِالْأُصُولِ ، بَلْ بِمَا حَوْلَهَا مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي لَا يَدْعُو إِلَى الْبَحْثِ عَنْهَا إِلَّا شَهْوَةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمَجْهُولَاتِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي مُتَنَاوَلِ الْعُقُولِ ، كَكَيْفِيَّةِ وُجُودِ وَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ بِالسُّؤَالِ عَمَّنْ خَلَقَ اللَّهُ ، إِذْ مَتَى عِلْمُ أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْهَا خَالِقًا لَهُ ، فَالسُّؤَالُ عَمَّنْ خَلَقَهُ إِنْ أُخِذَ عَلَى ظَاهِرِهِ كَانَ مُتَنَاقِضًا وَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى النَّفْسِ مِنْهُ شُبْهَةٌ فِي هَذَا الْأَصْلِ . أَمَّا إِنْ كَانَ سُؤَالُ ذَهْشَةٍ وَاسْتِغْرَابٍ وَتَطَلُّعٍ إِلَى تَحْدِيدِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَإِخْضَاعِهَا

(١) « سورة النحل / ١٦ : ٩٩ - ١٠٠ - » .

(٢) من إضافة المصدر لفاعله إذا كان من داخل النفس : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ) « سورة ق / ٥٠ : ١٦ - ك - » .  
أَوْ لِمَفْعُولِهِ إِذَا جَاءَ إِلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ بِإِلْفَاءِ « الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » « سورة الناس / ١١٤ : ٥ و ٤ - ك - » .

لِلتَّصَوُّرِ : كَيْفَ وُجِدَ بَغِيرٌ مُوجِدٌ ؟ وَكَيْفَ وُجِدَ مِنْ غَيْرِ أَوَّلٍ ؟ كَمَا يُسْأَلُ عَنْ سِرِّ فِعْلِ الْكَهْرُبَاءِ كَيْفَ تُضِيءُ بِغَيْرِ نَارٍ وَكَيْفَ تُحَرِّكُ بِغَيْرِ بُخَارٍ ؟ فَقَدْ خَرَجَ الْأَمْرُ عَنِ الْإِنْكَارِ وَالشَّكِّ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْأَسْرَارِ الْمَحْجُوبَةِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِذْ لَا يُمْكِنُ لِلْمُحَاطِ أَنْ يُحِيطَ بِمُحِيطِهِ وَلَا لِلْمَخْدُودِ أَنْ يَسَعَ أَكْثَرَ مِنْ حُدُودِهِ .

- الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ - : أَنْ يُوَافِقَهُ فِي الْخُطْوَةِ الْأُولَى وَيُفَارِقَهُ عِنْدَ الْخُطْوَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَذَلِكَ إِذَا تَعَلَّقَ بِالْأَصُولِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحِيًّا بِشُبْهَةٍ مَخْدُودَةٍ وَلَا طَعْنًا فِي دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ ، بَلْ مَعَ وَضُوحِ الْأَدِلَّةِ وَسَلَامَةِ مُقَدِّمَاتِهَا وَمُسَاعَدَةِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ لَهَا وَبُلُوغِ الْإِيمَانِ بِنَتَائِجِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَبْلَغًا يَقْرُبُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يُحِسُّهُ الْوُجِدَانُ إِحْسَاسَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْبَغْضِ وَالرَّضَى وَالْغَضَبِ ، مَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ تَسْمَعُ النَّفْسُ فِي فَرَاتٍ غَفَلَتِهَا هَاتِفًا مِنْ شَيَاطِينِ الْمَادَّةِ يَهْتَفُ بِهَا مُشَكِّكًا لَهَا فِي أَسَاسِ إِيمَانِهَا ، تَشْكِيكًا لَا يَتَعَمَدُ قَوَائِنَ الْمُنَاطَرَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ مَنْعِ الْقَضَايَا الْمُبْرَهَنَةِ مِنْ غَيْرِ خَدَشٍ لِادِّلَّتِهَا لَا بِالْإِجْمَالِ وَلَا بِالْتَّفْصِيلِ .

مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَجِيءَ « الشَّيْطَانُ » إِلَى الْإِنْسَانِ فِي صَلَاتِهِ أَوْ دُعَائِهِ وَهُوَ ذَاهِلٌ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ تَحْتَ سِتَارِ النَّصِيحَةِ الْمُمَوَّهَةِ قَائِلًا لَهُ :

« مَا بِأَلَا تُحَرِّكَ لِسَانَكَ بِمَا لَا تَعْبِي ؟ أَحْضَرُ قَلْبِكَ ، وَقَدَّرَ مَوْقِفَكَ ،  
وَأَعْبَدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » فَإِذَا اتَّفَقَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنَّهُ حَاوَلَ هَذَا الْأَسْتَحْضَارَ  
فَلَمْ يَجِدْ مِنْ فَوْرِهِ حَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ ، وَلَمْ تُسَعِّفْهُ بَدِيهَتُهُ بِتَفَهُمِ كَلِمَاتِ  
اللَّهِ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَالتَّحَقُّقِ بِمَعَانِيهَا فِي الْوُصْفِ وَالثَّنَاءِ وَالرَّغْبَةِ  
وَالرَّهْبَةِ وَغَيْرِهَا وَجَدَ « الشَّيْطَانُ » إِلَيْهِ مَنْفَذًا آخَرَ ، يَقُولُ لَهُ :  
« مَا بِكَ ؟ أَمْؤُومٌ أَنْتَ حَقًّا ؟ أَيْنَ هَذَا الْإِيمَانُ وَأَنْتَ ذَا تَتَلَمَّسُهُ فَلَا  
تَجِدُهُ ؟ لَعَلَّكَ مَخْدُوعٌ عَنْ نَفْسِكَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُقَلِّدٌ سَمِعْتَ النَّاسَ  
يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتَ كَمَا يَقُولُونَ بغيرِ بُرْهَانٍ ، أَوْ مُسْتَدِلٌّ أَخَذْتَ  
بِالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَحَسِبْتَ نَفْسَكَ آخِذًا بِالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ » . وَرَبِّمَا اسْتَطَرَّدَ  
مَعَهُ قَائِلًا : « بَلْ هُوَ ذَاكَ . وَإِلَّا فَنَبِّئْنِي أَيْنَ هَذَا الَّذِي تُكَلِّمُهُ ؟ هَلْ  
تَرَى أَحَدًا قَرِيبًا مِنْكَ فَتُنَاجِيهِ . أَوْ بَعِيدًا عَنْكَ فَتُنَادِيهِ ، أَمْ هُوَ الْخَيَالُ  
يُصَوِّرُ لَكَ حَاضِرًا مَا لَيْسَ بِحَاضِرٍ ، وَيَجْعَلُكَ تَهْذِي فِي خُلُوتِكَ  
كَالَّذِي يُكَلِّمُ نَفْسَهُ ؟ وَهَلْ تِلْكَ الْأَدَلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي يُقِيمُهَا النَّاسُ  
كَافِيَةً فِي إثْبَاتِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي تُخَاطِبُهُ ، إِنْ بَاتًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ  
كَالْإِثْبَاتِ بِالْمُشَاهَدَةِ أَلَيْسَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ وَلَوْ عَلَى وَجْهِ بَعِيدٍ أَنْ تَكُونُوا  
وَاهِمِينَ فِي هَذَا الْأَسْتِنَاجِ ، ككَثِيرٍ مِنَ الْأَسْتِنَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي  
يَعْرِضُ لَهَا الْخَطَأُ ؟ » . وَهَكَذَا يَنْتَقِلُ بِهِ مِنَ التَّحْرِيزِ عَلَى « الْإِحْسَانِ »  
إِلَى التَّشْكِيكِ فِي « الْإِيمَانِ » ثُمَّ مِنَ التَّشْكِيكِ فِي الْإِيمَانِ إِلَى التَّشْكِيكِ فِي  
« الْمُؤْمِنِ بِهِ » وَهُوَ فِي كَلَا التَّشْكِيكَيْنِ يَعْمَدُ إِلَى مُغَالَطَةٍ مَكْشُوفَةٍ .



أَمَّا تَشْكِيكُهُ لَهُ فِي أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَمَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ « عَدَمَ الْوُجْدَانِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْوُجُودِ » وَهِيَ مُغَالَطَةٌ قَدْ تَجَوَّزُ عَلَى الْعَاقِلِ ، كَمَا أَنَّ الْمُصَابَ بِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ قَدْ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ حِينَ يَغِيبُ عَنْهُ مَنْ شَاهَدَهُ بِاحْتِمَالِ الْغَلْطِ فِي مُشَاهَدَتِهِ ، فَيَقُولُ : لَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ تَخَيُّلَاتِ الْأَوْهَامِ . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ إِذَا أُصِيبَ بِمَرَضِ الْغَفْلَةِ فَكَمَنْ إِيمَانُهُ فِي حَوَافِظِ نَفْسِهِ وَتَرَكَمَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ النَّسْيَانِ خِيَلٌ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَنْبِيهِ أَنَّهُ لَا يَجِدُ إِيمَانَهُ وَأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْيَقِينِ إِلَى الظَّنِّ ، وَقَدْ يَزْدَادُ تَسَلُّطُ هَذَا الْخِيَالِ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا كَانَ عَمِيقَ الْغَفْلَةِ أَسِيرَ الظَّوَاهِرِ الْجِسِّ ، لَا يَرَى أَبْعَدَ مِنْ جِدَارِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا يُحَسُّ أَكْثَرَ مِنْ شَبَحِ جِسْمِهِ وَصَدَى صَوْتِهِ ، فَكَانَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَنْفُذَ بِبَصِيرَتِهِ إِلَى بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَيَتَذَوَّقَ تِلْكَ الْحَقَائِقَ الْعُلْيَا وَجَدَ شَيْئاً مِنَ الصُّعُوبَةِ ، كَأَنَّمَا يَتَنَاوَشُهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أَوْ يَسْتَقْبِيهَا مِنْ بَثْرِ عَمِيقَةِ الْغُورِ . فَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يَطْلُبُ مِنَ الْمُشَاهَدَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْإِحْسَاسِ الرُّوحَانِيِّ وَقَفَ الشَّيْطَانُ يَضْحَكُ مِنْهُ قَائِلاً : « لَقَدْ صَدَقْتَ ظَنِّي فِيكَ فَلَوْلَا أَنَّكَ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِكَ لَوَجَدْتَ نَفْسَكَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ فِي حُضُورٍ وَمُشَاهَدَةٍ » فَيَزْدَادُ تَوَهُماً أَنَّهُ قَدْ سَلِبَ إِيمَانَهُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّمَا هُوَ عَدَمُ الْحُضُورِ لَا عَدَمُ الْحُصُولِ ، وَنَقْصُ الزِّيَادَةِ لَا نَقْصُ الْأَصْلِ . وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ يَتَحَسَّنُ بِقِيْنِهِ وَيُرَاجِعُ بَرَاهِينَهُ

وَيَجْتَرُّهَا رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِيَتَذَوَّقَهَا ، لَوْ جَدَّ عُقْدَةً إِيمَانِهِ وَثِيقَةً ، وَلَا سِتْبَانَ لَهُ بَعْدَ الرُّجُوعِ إِلَى صَوَابِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الشَّكِّ فِي شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُ التَّشْكِيكَ جَعَلَهُ يَنْشُدُ ضَالَّةً هُوَ يَحْمِلُهَا فِي طَيِّبَاتِ نَفْسِهِ . وَلَعَلَّ مِمَّا يُرْفَعُ عَنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نَضْرِبَ لَهُ مَثَلًا يَعْرِفُ بِهِ سِرَّ هَذَا الْاِخْتِلَافِ الَّذِي يَجِدُهُ بَيْنَ حَالِي قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ ، لِيُدْرِكَ أَنَّهُ لَيْسَ رَاجِعًا إِلَى اخْتِلَافِ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ بَلْ رَاجِعٌ إِلَى تَفَاوُتِ طَبِيعَةِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِهَا وَفَرْقٍ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ بِالشَّهَادَةِ : ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَائِقَ الْغَيْبِيَّةَ مَعَ كَوْنِهَا مُشْرِقَةً بِالْبُرْهَانِ هِيَ دَائِمًا مَخْجُوبَةٌ عَنِ الْعِيَانِ . فَكَانَتْ كَالسَّهْلِ الْمُتَمَنِّعِ أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى كَالْقَمَرِ لَا يَخْضُو أَحَدٌ وَجْهَهُ عَنِ الضُّوءِ الْبَتَّةَ ، وَلَكِنَّهُ تَارَةً يَسْتَقْبِلُكَ بِوَجْهِهِ الْمُضِيءِ وَتَارَةً يَسْتَذِيرُكَ بِهِ فَكَذَلِكَ نَحْنُ كُلَّمَا شَغَلَتْ حَوَاسِنَا بِظَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَمْ نَشَاهِدْ نُورَ الْإِيمَانِ ، وَكُلَّمَا طَالَعَتْ قُلُوبُنَا آيَاتِ اللَّهِ أَشْرَقَ عَلَيْنَا نُورُ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ فِي طَاقَتِنَا مَا دُمْنَا مُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ أَنْ نَكُونَ فِي شُهُودٍ دَائِمٍ ، كَمَا لَيْسَ فِي طَاقَتِنَا أَنْ نَجْعَلَ الْقَمَرَ مُشْرِقًا أَبَدًا كَالشَّمْسِ ، أَوْ نَجْعَلَ الشَّمْسَ طَالِعَةً لَيْلًا وَنَهَارًا . وَبِالْجُمْلَةِ فَطَبِيعَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ تَأْتِي أَنْ تَكُونَ كَالْإِيمَانِ بِالشَّهَادَةِ ، إِذْ : (بَيْنَهُمَا بَرَزُخٌ لَا يَبْغِيَانِ) <sup>(١)</sup> . نَعَمْ إِنَّ الْمَدَى بَيْنَهُمَا قَدْ يَقْصُرُ جِدًّا حَتَّى لَيْكَادَانِ يَلْتَقِيَانِ لَكِنْ دَوَامَ هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْجُونٌ بِطَبِيعَةِ النَّسْيَانِ .



وَأَمَّا اسْتَطْرَاضُهُ إِلَى التَّشْكِيكِ فِي أَصْلِ الْأُصُولِ وَحَقِيقَةِ الْحَقَائِقِ وَهِيَ وَجُودُ الْمَعْبُودِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ « كُلَّ مَا لَمْ يَقَعْ تَحْتَ الْحِسِّ بِطَرِيقِ مُبَاشَرٍ جَازٍ أَنْ يَكُونَ وَهْمًا وَخَيَالًا <sup>(١)</sup> » وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ .  
فَهِىَ مُغَالَطَةٌ أَشَدُّ تَهافتًا مِمَّا قَبْلَهَا ، إِذْ لَا يَقْبَلُ عَاقِلٌ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ إِنَّ عِلْمَهُ لَا يُجَاوِزُ حُدُودَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَشَمِّهِ وَذَوْقِهِ وَلَمْسِهِ ، فَفِيمَ إِذَا يَنْتَفِعُ بِعَقْلِهِ ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ وَالْمَنْطِقِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ أَمْ كَيْفَ يُؤْمِنُ « بِالْجُغْرَافِيَا » وَالتَّارِيخِ فِيمَا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنَ الْأَقْطَارِ النَّائِبَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ؟ مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُتَوَاتِرَةِ مِنْ تَصَرُّفٍ عَقْلِيٍّ وَهُوَ الْجَزْمُ بِاسْتِحَالَةِ تَوَاطُؤِ النَّاقِلِينَ عَلَى الْكُذْبِ .  
بَلْ كَيْفَ يُؤْمِنُ بَعْدَاوَةِ الْعَدُوِّ وَصَدَاقَةِ الصَّدِيقِ وَهُوَ لَمْ يَشُقَّ عَنْ قَلْبِهِ كَيْفَ يَعْرِفُ عَقْلُ الْعَاقِلِ وَجَهْلُ الْجَاهِلِ وَهُوَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى تَضَارِيصِ خِفِّهِ ؟ وَكَيْفَ يَقُولُ إِنَّهُ رَأَى يَدَ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ مَسْتَوْرَةً فِي قَفَازِهَا ، كَيْفَ يُؤْمِنُ بِحَيَاةٍ مَنْ يُكَلِّمُهُ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ وَهُوَ لَا يَرَى شَخْصَهُ ؟  
كَيْفَ يُؤْمِنُ بِالْكَهْرُبَاءِ وَهُوَ لَا يَرَى إِلَّا آثَارَهَا بَلْ كَيْفَ يُؤْمِنُ بِحَيَاةٍ مَنْ يَشَاهِدُهُ وَبِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَهُوَ لَا يَرَى إِلَّا مَظَاهِرَ تِلْكَ الْقُوَى ؟

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ إِنْ عَرَضَتْ لِلْمُؤْمِنِ فَإِنَّمَا تَمُرُّ بِقَلْبِهِ مَرَّةً الْخَوَاطِرِ الْوَقْنِيَّةِ . كَثِيرٌ مِنْ النَّوَاسِيسِ . وَلَكِنَّمَا مَسْتَعَالِجُهَا كَمَا تَعَالَجُ الشُّبُهَاتِ الْحَقِيقِيَّةُ . لِأَنَّهَا هِيَ كَذَلِكَ فِي بَعْضِ النَّفُوسِ ، وَلَقَدْ عَظُمَتْ بِهَا فَتْنَةُ الْمَلَايِكَةِ فِي هَذَا النَّعْصَرِ فَأَضَلُّوا بِهَا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ - فَلَا تَمْلِكُوا إِذَا طَالَ الْكَلَامُ فِي تَقْنِيدِهَا .

ولماذا يَسْتَعِدُّ لِلِقَاءِ الْجِيُوشِ قَبْلَ قُدُومِهَا وَلِتَرْمِيَهُ الدَّارَ قَبْلَ سُقُوطِهَا  
وَلِتَوْفِيَ الْأَمْرَاضَ قَبْلَ هُجُومِهَا ؟ فَإِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِهَذَا كُلِّهِ ثُمَّ يَزْعُمُ  
أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ وَيَلْمِسُهُ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ فِي دَعْوَاهُ ، وَإِنْ كَانَ  
لَا يُؤْمِنُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالنُّزُولِ إِلَى رُتَبَةِ الْحَيَوَانِ  
الْأَعْجَمِ ، بَلْ إِلَى أَدْنَى مِنْهُ رُتَبَةً ، فَإِنَّ الْحَيَوَانَ بِعَقْلِهِ الْغَرِيزِيِّ أَوْ  
الْوَرَائِيِّ قَدْ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يَرَاهُ ، اسْتِدْلَالًا بِمَا يَرَى . فَالْفَارُّ يُدْرِكُ عِدَاوَةَ  
الْهَرِّ ، وَالشَّاةُ تَعْرِفُ عِدَاوَةَ الذَّنْبِ ، وَالْكَلْبُ يَفْهَمُ مِنْ إِحْسَانِ صَاحِبِهِ  
إِلَيْهِ مَعْنَى الْعُطْفِ وَالرَّحْمَةِ ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ وَيُكَافِئُهُ بِالْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ .

وَلَوْ أَنَّ الْخَطَأَ فِي بَعْضِ الاسْتِنَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ لَفَقَدَهَا شَرَائِطُ النَّظَرِ  
الصَّحِيحِ يُوجِبُ التَّشْكِيكَ فِي كُلِّ حُكْمٍ عَقْلِيٍّ لَجَازٍ مِثْلُهُ فِي الْعُلُومِ  
الْحِسِّيَّةِ أَيْضًا لَوْجُودِ الْغَلَطِ فِي بَعْضِ الْحِسِّ ، كَرَاكِبِ الْمَرْكَبِ  
السَّرِيعِ يَرَى الْأَشْجَارَ وَالْمَنَازِلَ تَدُورُ حَوْلَهُ . فَمَنْ وَسِعَهُ لِذَلِكَ أَنْ  
يَتَشَكَّكَ فِي حِسِّهِ وَعَقْلِهِ مَعَ فَقْدِ خَرَجٍ إِلَى الْجَهْلِ الْمُطْلَقِ بَلِ الْجُنُونِ  
الْمُطْبِقِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَسْتَحِجُّ أَحَدٌ أَنْ يَضْفَعَهُ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ  
مَنْ يَضْفَعُهُ إِذْ لَعَلَّه خَدَعَهُ حِسُّهُ وَخَانَهُ وَهَمُّهُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ سَاغَ التَّشْكِيكَ  
بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ (١) النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَسُوغُ فِي

(١) هُنَالِكَ نَظَرِيَّاتٌ عِلْمِيَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّحْدِيدِ ، كَبَعْضِ نَظَرِيَّاتِ الطَّبِّ وَالْفَلَكِ  
وَالطَّبِيعَةِ وَالْكِيمْيَاءِ فِي مِثْلِهَا يَسُوغُ الْوَقُوفُ عِنْدَ كُلِّ خَاطِرٍ مُشَكِّكٍ يُقَالُ فِيهِ  
أَصَوَابٌ هِيَ أَمْ خَطَأٌ بَلْ يَحْسُنُ إِفْسَاحُ الصَّدْرِ لِكُلِّ بَحْثٍ يُطْلَبُ بِهِ اسْتِفْتَائُهُ =

الاستدلالُ بِالآثَارِ الْحَسِيَّةِ عَلَى وُجُودِ مَصْدَرٍ لَهَا ، وَبِعَظْمَةِ تِلْكَ الْآثَارِ عَلَى قُدْرَةِ ذَلِكَ الْمَصْدَرِ ، وَبِاخْتِلَافِهَا عَلَى اخْتِيَارِهِ وَبِاثْتِلَافِهَا عَلَى وَحْدَتِهِ ، وَبِدِقَّةِ نِظَامِهَا عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ ؟ إِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الاستدلالِ لَيْسَ مَرْكُوزاً فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ وَخَدَهُ ، بَلْ فِي فِطْرَةِ الْحَيَوَانَ كُلِّهِ . حَتَّى إِنَّ الْبَهِيمَةَ لَتَسْمَعُ الصَّوْتَ فَتُذْعَرُ مِنْهُ عِلْماً بِأَنَّ لَهُ مَصْدَراً وَأَنَّ وَرَاءَهُ سَبَباً مُؤَثِّراً .

الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ إِنْ شَوَّشَتْ لَحْظَةً فَإِنَّمَا تُشَوِّشُ عَلَى مَنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى نَفْسِهِ فِي تَحْقِيقِ عَقَائِدِهِ وَإِنَّمَا اسْتَمَدَّهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الْمُتَكَلِّمُونَ لِفِتْنَةٍ خَاصَّةٍ وَهِيَ فِتْنَةُ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ ، إِجَابَةُ

= العَقْلُ فِيهَا مِنْ جَدِيدٍ ، فَعَسَى أَنْ يَنْقُضَ الْبَحْثُ فِيهَا الْيَوْمَ مَا أَبْرَمَ مِنْهَا بِالْأَمْسِ وَأَنْ يَهْدِمَ الْغَدُ مَا بَنَاهُ الْيَوْمَ . لَكِنْ هُنَاكَ إِلَى جَانِبِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ نَظَرِيَّاتٌ أُخْرَى لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ كَنَظَرِيَّاتِ الْحِسَابِ وَالْمُنْتَدَسَةِ وَالْمَنْطِقِ ، فَهَلْ يَقْبَلُ عَاقِلٌ أَنْ يَسْمَعَ تَشْكِيكاً فِي قَاعِدَةِ التَّنَاسُبِ ، أَوْ قَاعِدَةِ زَوَايَا الْمُثَلَّثِ ، أَوْ قَاعِدَةِ التَّنَاقُضِ وَالْعَكْسِ ؟ ثُمَّ هَلْ هُنَا أَوَّلِيَّاتٌ ، وَهَلْ هُنَا نَظَرِيَّاتٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ هِيَ أَحَقُّ بِالْأَلَا تُصْنَعُ أُذُنُ الْقَلْبِ إِلَى خَاطِرٍ يُشَكِّكُ فِيهَا ، لِأَنَّهَا قَدْ اسْتَجَابَتْ لَهَا الْعُقُولُ بِفِطْرَتِهَا ، وَهِيَ مَغْرُورَةٌ فِي سَنَخِهَا وَقَرَارَتِهَا . فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْظُرَ عَاقِلٌ فِي مِرَاةِ نَفْسِهِ إِلَّا وَجَدَهَا ، وَلَا تَصْدُقُ دَعْوَى عَاقِلٍ أَنَّهُ يُبَحِّثُهَا فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى الصَّوَابِ فِيهَا لِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ مِنْ إِدْرَاكِهَا إِلَّا الْإِغْمَاضُ عَنْهَا ، وَمَنْ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهَا النَّفْسُ بِإِخْلَاصٍ وَهَدْيٍ إِلَى إِلَهِيَّاتِ السَّاطِعَةِ وَجَبَّ أَنْ تُعَدَّ أُمُوراً مَفْرُوعاً مِنْهَا ، وَأَنْ يُعَدَّ كُلُّ تَشْكِيكٍ فِيهَا دَاحِضاً بِنَفْسِهِ . ذَلِكَ مِثْلُ الْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ : ( وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ) - « سُورَةُ الشُّورَى / ٤٢ : ١٦ - ك - » .

لِشَهْوَةِ عُقُولِهَا وَدُعَاءِ لَهَا بِالنُّوعِ الَّذِي تَأْلَفُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ . فَلَمَّا أَطَالُوا فِيهَا النُّجْعَةَ وَتَكَلَّفُوا الْمُقَدَّمَاتِ الْمُرَكَّبَةَ وَالْبُحُوثَ الْمُعَقَّدَةَ صَوَّرُوا الْمَسْأَلَةَ بِصُورَةِ النَّظَرِيَّاتِ الْعُيُصَةِ الْقَابِلَةِ لِلْأَخْذِ وَالرَّدِّ وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ الضَّرُورِيَّاتِ إِلَى الْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ كَمَا ذَكَرْنَا ، لِذَلِكَ عَرَفَهَا « الْعَرَبُ » فِي أَشَدِّ جَاهِلِيَّتِهِمْ ، وَأَذْرَكَهَا أَهْلُ الْأَذْيَانِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ ، بَلِ الْمَادِّيُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ جَازِمُونَ بِأَمْنِهَا وَلَكِنْ غَفَلَتْهُمْ لَمَّا اسْتَحْكَمَتْ وَشَهَوَاتِهِمُ الْعَاجِلَةَ لَمَّا اسْتَحْوَذَتْ شُغْلَتْ أَنْظَارَهُمْ بِالْحُظُوظِ الدُّنْيَا وَصَرَفَتْهَا عَنِ الْحَقَائِقِ الْعُلْيَا حَتَّى بَعَدَ الْفَهْمُ بِهَا وَصَارَ ضَرُورِيَّهَا مُحْتَاجًا إِلَى التَّنْبِيهِ <sup>(١)</sup> إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ النَّظَرِيُّ إِلَى الْاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ .

أَمَّا مَنْ كَانَ يَأْوِي فِي عَقَائِدِهِ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ مِنْ مُشَاهَدَاتِهِ وَتَأَمُّلَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الصَّوْتِ الْمُزْعِجَ الَّذِي يَنْعِقُ بِهِ الشَّيْطَانُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ - أَنْ يَجِدَ مِنْ يَقْظَةٍ رُوحِهِ وَصَفَاءِ إِحْسَاسِهِ مَذْبَعًا يَطْرُدُهَا عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ التَّشْوِيشَ ، بَلْ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ضَمِيرِهِ مُنَادِيًا يُنَادِي قَائِلًا :

« أَتَسْأَلُ أَيْنَ هَذَا الَّذِي أَنَا جِيهِ ! إِنَّهُ لَيْسَ شَيْئًا يُسْتَقْبَلُ بِالْأَبْدَانِ أَوْ يُتَمَثَّلُ فِي عَرْضِ الْجُدْرَانِ ، فَأَفْرَحُ إِنْ تَعَلَّقَ بِهِ خِيَالِي كَأَنَّهُ مَائِلٌ

(١) مِنْ هُنَا سُمِّيَ « الْقُرْآنُ » ذِكْرًا ، وَسُمِّيَتِ الْآيَاتُ تَذَكِيرًا ، وَالْأَنْبِيَاءُ مُذَكِّرِينَ وَالْأَهْلِيَاءُ تَذَكَّرًا .

أَمَامِي حَاضِرٌ مَحْدُودٌ، أَوْ أَخْرَنُ إِنْ لَمْ أَحْسَ بِهِ كَأَنَّهُ غَائِبٌ مَفْقُودٌ  
 كَلَّا ، لَا شَأْنَ لِي بِهَذَا الَّذِي يَغِيبُ وَيَحْضُرُ ، فَمَا ذَاكَ إِلَّا الْأَخِيْلَةُ  
 وَالْأَوْهَامُ . وَإِنَّمَا أَنَا جِي حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ ، لَكِنَّ شَأْنَهُ فِي حُضُورِهِ  
 عَجِيبٌ ! فَهُوَ لَيْسَ بِالْقَرِيبِ الَّذِي يَنْحَصِرُ فَيَحْدُ ، وَلَا بِالْبَعِيدِ الَّذِي  
 يُفْتَشُّ عَنْهُ فَيَفْتَقِدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ جَدًّا بِسُلْطَانِهِ ، بَعِيدٌ جَدًّا  
 بِعُلُوِّ شَأْنِهِ . هَلْ أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ ؟ إِنَّهُ لَا يَذَرُكَ الطَّرْفُ . هَلْ أَصْفَهُ  
 لَكَ ؟ إِنَّهُ لَا يَكْشِفُ عَنْهُ الْوَصْفُ . هَلْ أَمَثَلُهُ لَكَ ؟ إِنَّهُ لَا يُتَخَيَّلُ  
 بِذَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِقَدْرِ عَظَمَةِ مُلْكِهِ تَتَمَثَّلُ عَظَمَةُ صِفَاتِهِ ، فَيَتَصَوَّرُ  
 مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ . وَأَخِيرًا هَلْ أَدُلُّكَ عَلَيْهِ ؟

« انْظُرْ مَعِيَ أَلَسْتُ تَرَى هُنَالِكَ يَدًا تَعْمَلُ مِنْ وَرَاءِ الْأَيْدِي كُلِّهَا ،  
 لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ سُلْطَانِهَا ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ رَدَّ قَضَائِهَا ، وَلَا مُضَاهَاةَ  
 عَمَلِهَا . أَلَا تَرَى تِلْكَ الْيَدَ ؟ أَمَّا أَنَا فَأَكَادُ أَرَاهَا مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَقِيقٍ  
 كُلَّمَا أَطْلَلْتُ مِنْ غُرْفَتِي وَأَلْقَيْتُ نَظْرِي بَعِيدًا عَنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ .  
 فَإِذَا مَا عُدْتُ إِلَى عَمَلِ الْإِنْسَانِ كِدْتُ أَرَاهَا أَيْضًا لَكِنْ فِي « قَفَازِ »  
 الْإِنْسَانِ .

« نَعَمْ هَاهِي ذِي تُحَرِّكُ الْعَالَمَ كُلَّهُ مِنْ حَوْلِنَا : تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ ،  
 وَتَبْسُطُ وَتَقْبِضُ ، وَتُعِزُّ وَتُذِلُّ ، وَتَنْصُرُ وَتَخْذُلُ ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ  
 النَّاسِ بِهَا لَا يَشْعُرُونَ أَمَّا هُنَالِكَ فَإِنَّهَا بِأَدِيَّةٍ كَأَنَّهَا لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ

أَتَرَى أَيْنَ ؟ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي اللَّيْلِ إِذَا سَجَا ، وَفِي النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ، وَفِي النَّجْمِ الطَّالِعِ إِذَا هَوَى أَوْ أَفَلَ ، وَفِي الشَّهَابِ الثَّاقِبِ كُلَّمَا خَبَا أَوْ اشْتَعَلَ . أَلَمْ تَرَهَا بَعْدُ ؟ ، أَفَلَا تَرَاهَا فِي الرَّعْدِ إِذَا قَصَفَ وَفِي الْبَرْقِ إِذَا خَطَفَ ، وَفِي الْقَمَرِ إِذَا خَسَفَ ، وَفِي الشَّمْسِ إِذَا كَسَفَتْ ، وَفِي الرِّيحِ إِذَا عَصَفَتْ ، وَفِي النَّسِيمِ إِذَا سَرَى ، وَفِي الْبَحْرِ إِذَا جَرَى ، أَلَا تَرَاهَا فِي الْحَيِّ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَيِّتُ ، وَفِي الْمَيِّتِ يَخْرُجُ مِنْهُ الْحَيُّ ، وَفِي ذَلِكَ الْمَاءِ الْمُهَيِّنِ يَصِيرُ إِلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ . وَفِي هَذَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ يَصِيرُ خَبَرًا بَعْدَ عَيْنٍ . أَلَا تَرَاهَا فِي تِلْكَ الْجُبُوشِ الْجَرَّارَةِ مِنْ أَسْرَابِ الطَّيْرِ ، وَحَيَوَانِ الْبَحْرِ ، وَأُمَمِ الْوُحُوشِ ، وَالْحَشَرَاتِ ، وَالْهَوَامِ . وَفِي الْجَرَائِمِ السَّابِحَةِ فِي الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالْأَجْسَامِ ! . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَالِمِ الظَّاهِرَةِ وَالْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَّْا أَيْنَ مَسَرَّاهَا وَمَأْوَاهَا ، وَلَا يَفْهَمُ لُغَتَهَا وَلَا يُدَبِّرُ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا وَنِظَامَ عَمَلِهَا . أَلَا تَرَاهَا فِيمَا يَقَعُ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَفِيمَا تُشَاهِدُهُ الْأَرْوَاحُ مِنَ الرُّؤْيِ الصَّادِقَةِ وَفِي خَطَايَا الْحَاسِبِينَ ، وَكَذِبِ الْمُتَجَمِّينَ ، وَعَجْزِ الْمُتَطَبِّينَ ، ثُمَّ فِي عَجْزِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ( وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ) (١) :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ (٢)

(١) «سورة الحج ٢٢ : ٧٣ - م - » . (٢) «ديوان أبي العتاهية : ١٠٤ » .



« بَلْ مَالِي أَشِيرُ إِلَيْهِ بَعِيداً عَنِّي وَهُوَ مِنِّي قَرِيبٌ ، بَلْ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، هَذِهِ يَدُهُ أَكَادُ أَحْسَهَا آخِذَةً بِنَاصِيَتِي ، مُصَرَّفَةً لِسَمْعِي وَبَصَرِي ، مُقَلَّبَةً لِحَرَكَاتِ قَلْبِي وَخَطَرَاتِ نَفْسِي ، مُدَبَّرَةً غِذَاءَ رُوحِي وَجَسْمِي ، مِنْ مَفْرِقِ رَأْسِي إِلَى أَخْمَصِ قَدَمِي ، وَمِنْ أَطْرَافِ شَعْرِي وَغُضُونِ جِلْدِي ، إِلَى أَعْمَاقِ عَظْمِي وَمُخِّي وَعَصَبِي ، كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْهُ يَجْرِي إِلَيْهَا رِزْقُهَا الْمَقْسُومُ وَنَصِيبُهَا الْمَعْلُومُ مِنْ حَيْثُ لَا أُرِيدُ وَلَا أَشْعُرُ . يُمَسِّكُ نَفْسِي حِينَ يَشَاءُ ، وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ، وَيُرْسِلُهَا حِينَ يَشَاءُ وَمَا يُرْسِلُ فَلَا مُمَسِّكَ لَهُ ، أَغْزَمُ الْعَزِيمَةَ فَيُفَصِّصُهَا ، وَرُبَّمَا أَحْلَاهَا فَيُبْرِمُهَا ، أَعْرِفُ الشَّيْءَ ثُمَّ أَنْكَرُهُ وَقَدْ أَنْكَرُهُ ثُمَّ أَعْرِفُهُ . أَحِبُّ الشَّيْءَ ثُمَّ أَكْرَهُهُ وَتَارَةً أَكْرَهُهُ ثُمَّ أَحِبُّهُ فَذَلِكَ الشَّيْءُ الَّذِي يَمْلِكُ مِنِّي مَا لَا أَمْلِكُ ، وَلَا أَمْلِكُ شَيْئاً مِمَّا يَمْلِكُ ، إِلَيْهِ أُوْجِهُ قَلْبِي وَأَفْوِضُ أَمْرِي وَبِهِ أَسْتَعِينُ فِي حَاجَتِي ، وَلَا أَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، وَلَا أُعْطِي مِنْ نَفْسِي الْمَذَلَّةَ إِلَّا لَهُ : ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ) (١) .

« وَبَعْدُ ، فَمَا ظَنُّكَ فِي تِلْكَ الْقُدْرَةِ الَّتِي فَوْقَ الْقَدْرِ ؟ هَلْ عَسَيْتَ أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ حَقًّا ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَيْئاً وَرَاءَ قُوَّةِ الطَّبِيعَةِ

الْمَادِيَّةِ ؟ أَتَظُنُّ ذَلِكَ ؟ نَاشِدْتُكَ ! نَبَّيْنِي مَاذَا تَفْهَمُ مِنْ كَلِمَةِ :  
 « الطَّبِيعَةِ » فَإِنِّي لَسْتُ أَفْهَمُ مِنْهَا إِلَّا مَجْمُوعَةَ تِلْكَ الْخَصَائِصِ  
 وَالسُّنَنِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا الْمَادَّةُ فِي وُجُودِهَا ، وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ وَإِنْ  
 صَلَحَتْ مَبْدَأً لِأَثَارِهَا لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَبْدَأُ الْأَوَّلُ لِلْكَائِنَاتِ  
 كُلِّهَا حَتَّى الْمَادَّةُ الَّتِي تَقُومُ هِيَ بِهَا ، لِأَنَّ مَنْزِلَتَهَا مِنَ الْمَادَّةِ مَنْزِلَةٌ  
 الصِّفَةِ مِنْ مَوْصُوفِهَا ، وَلَكِنْ تَكُونُ صِفَةُ الشَّيْءِ اللَّاحِقَةِ بِهِ الْمُسْتَنْدَةُ  
 إِلَيْهِ مَبْدَأً لَهُ إِلَّا لَوْ كَانَ ثَوْبُكَ الَّذِي تَلْبَسُهُ أَوْ شَكْلُكَ الَّذِي أَنْتَ  
 عَلَيْهِ سَبَبًا فِي وُجُودِكَ ، فَإِنَّ مَا لَا قِيَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ ؟ كَيْفَ يَقُومُ غَيْرُهُ  
 بَلْ كَيْفَ يَقُومُ مَا هُوَ مُخْتَاجٌ إِلَيْهِ وَلَا قِيَامَ لَهُ هُوَ بِنَفْسِهِ ؟ فَهَذِهِ  
 السُّنَنُ الْكَوْنِيَّةُ إِذَا مَفْعُولَةٌ مَجْعُولَةٌ لَا فَاعِلَةٌ مُسَيِّطَرَةٌ .

« وَلَكِنْ لَعَلَّكَ تَعْنِي شَيْئًا آخَرَ ، تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ ذَاتَ الْمَادَّةِ  
 وَمَاهِيَّتَهَا اقْتَضَتْ وُجُودَهَا ، وَاقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا عَلَى هَذَا  
 النَّحْوِ الْمُشَاهِدِ إِذَا لَكَانَتِ الْمَادَّةُ بِأَوْضَاعِهَا وَاجِبَةً الْوُجُودِ لِذَاتِهَا ،  
 مُسْتَحِيلَةَ الْعَدَمِ لِذَاتِهَا ، فَيَالَيْتَ شِعْرِي أَيُّ مُحَالٍ عَقْلِي كَانَ يَقَعُ  
 لَوْ لَمْ تُوجَدْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، أَوْ لَوْ وَجَدَتْ عَلَى أَوْضَاعٍ  
 غَيْرِ مَا هِيَ عَلَيْهِ ؟ أَكَانَ يَجْتَمِعُ النَّقِیضَانِ ، أَمْ كَانَ يَكُونُ الشَّيْءُ  
 غَيْرَ نَفْسِهِ ، أَمْ عَيْنَ غَيْرِهِ ، أَمْ مَاذَا ؟ » .

« ثُمَّ لَوْ كَانَ وُجُودُهَا مُقْتَضَى ذَاتِهَا لَكَانَتْ شَيْئًا وَاحِدًا مُتَشَابِهًا ،

لِأَنَّ الذَّاتَ الْوَاحِدَةَ السَّادِجَةَ لَا تَقْتَضِي الْأَضْدَادَ وَالنَّقَائِضَ . فَمَا بَالُنَا نَرَى طَبِيعَةَ كُلِّ جِنْسٍ مِنْهَا تُخَالِفُ طَبَائِعَ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ ، وَطَبِيعَةَ النَّوعِ مِنَ الْجِنْسِ تُخَالِفُ طَبَائِعَ بَاقِي الْأَنْوَاعِ ، بَلْ لِكُلِّ فَرْدٍ وَلِكُلِّ عَضْوٍ وَظِيفَةٍ طَبِيعِيَّةٌ يُؤَدِّيهَا غَيْرُ وَظِيفَةٍ الْعَضْوِ الْآخَرِ ! ؟ فَاَلْمَاءُ لَا يُحْرَقُ ، وَالنَّارُ لَا تُطْفِئُ ، وَالْحِمَارُ لَا يُغَرِّدُ ، وَالْعُصْفُورُ لَا يَنْهَقُ ، وَالْأُذُنُ لَا تُبْصِرُ ، وَالْعَيْنُ لَا تَسْمَعُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يُولَدُ مَاشِيًا مُسْتَقِلًا بِنَفْسِهِ ، وَفَرَخُ الدَّجَاجَةِ يَخْرُجُ مُسْتَقِلًا عَنْ أُمِّهِ ، وَفَرَخُ الْحَمَامَةِ لَا يَسْتَعِينِي عَنْهَا إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ ، ( وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ) (١) وَهَكَذَا تَخْتَلِفُ الْكَائِنَاتُ الْعُلُويَّةُ فِي أَحْجَامِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَمَدَارَاتِهَا اخْتِلَافًا كَبِيرًا .

« فَإِنْ ذَهَبَتْ إِلَى أَنَّ مَاهِيَةَ الْمَادَّةِ أَمْرٌ مُرَكَّبٌ مِنْ عَنَاصِرٍ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَأَنَّ كُلَّ عُنْصُرٍ مِنْهَا يَقْتَضِي لِذَاتِهِ نِظَامًا خَاصًّا لَا يَخْرُجُ عَنْهُ فَقَدْ أَحَلَّتْ ، لِأَنَّ الْمُرَكَّبَاتِ لَا يَكُونُ وُجُودُهَا مُقْتَضًى ذَاتِهَا ، إِذْ هِيَ مَسْبُوقَةٌ بِأَجْزَائِهَا الْمُقَوِّمَةِ لَهَا ، مُحْتَاجَةٌ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا لِحُصُولِ هَيْئَتِهَا التَّرَكِيبِيَّةِ ، وَالْمَسْبُوقُ بِغَيْرِهِ أَوْ الْمُحْتَاجُ لِغَيْرِهِ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ مُقْتَضًى ذَاتِهِ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِلَّةٍ أُخْرَى . وَمَعَ ذَلِكَ نَسْأَلُ : « لِمَذَا

لَا تَطْرُدُ الطَّبِيعَةَ الْوَاحِدَةَ بِالْوَرَاثَةِ فِيمَا تَنَاسَلَ مِنْهَا ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَتَخَلَّفُ . فَالْبَصِيرُ يَلِدُ أَعْمَى ، وَالْأَعْمَى يَلِدُ بَصِيرًا ، وَالْجَاهِلُ يُنْجِبُ عَالِمًا ، وَالذَّكِيُّ غَبِيًّا ، وَالتَّقِيُّ فَاجِرًا ، وَالْفَاجِرُ تَقِيًّا » -  
 نَقُولُ : « لِمَاذَا هَذَا التَّخَلُّفُ وَذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ مَعَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِلشَّيْءِ بِذَاتِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ وَلَا أَنْ يَخْتَلِفَ ؟ » بَلْ لِمَاذَا نَرَى الطَّبِيعَةَ الْوَاحِدَةَ فِي نَفْسِهَا قَدْ تَنْقَلِبُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ ؟ فَلَقَدْ حَدَّثَنَا التَّارِخُ الصَّادِقُ بِانْقِلَابِ الطَّيْنِ طَيْرًا عَلَى يَدِ « عِيسَى » ، وَانْقِلَابِ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى عَلَى يَدِ « مُوسَى » ، وَالنَّارِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى « إِبْرَاهِيمَ » ، -  
 عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - . بَلْ حَدَّثَنَا الْمُشَاهِدَةُ - وَهِيَ أَقْرَبُ إِقْنَاعًا لِلْمُجَادِلِ - بِأَنَّ دُودَةَ الْقَزِّ الرَّاحِفَةَ مَتَى تُرِكَتْ وَشَانَهَا انْقَلَبَتْ فَرَأْسًا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ ، وَهَذِهِ سُنَّةٌ نَرَاهَا فِيهَا بِاطْرَادٍ . فَأَيْنَ مُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ النُّوعِيَّةِ لَوْ كَانَ مَا تَقْضِي بِهِ وَاجِبًا لِدَاتِهَا ! ؟ .

« أَمَا إِذَا نَزَلَتْ عَنْ دَعْوَى الْوُجُوبِ الذَّاتِيِّ وَاعْتَرَفْتَ بِأَنَّ الْمَادَّةَ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ ، وَأَلَّا تُوْجَدَ وَأَنَّهَا حِينَ وُجِدَتْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ قُلْتَ : « وَلَكِنَّهَا هَكَذَا وَوُجِدَتْ مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا وَهَكَذَا اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا ، لِأَنَّهَا لَمَّا وُجِدَتْ تَحَرَّكَتْ فَأَخَذَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا شَكْلًا مَا ، وَتَبَوَّأَ مَكَانًا مَا ، مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا ، فَاخْتَلَفَتْ مَظَاهِرُهَا تَبَعًا لِاخْتِلَافِ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ

والظُرُوفُ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا ، وَرُبَّمَا تَغْلِبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مُصَادِفَةٌ  
وَاتِّفَاقًا أَيْضًا ، فَهَذَا كَلَامٌ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ أَحَدُهُمَا أَشَدُّ بَطْلَانًا مِنَ الْآخَرِ :  
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا وَجِدَتْ وَحَدَّثَ فِيهَا مَا حَدَّثَ هَكَذَا تَرْجِيحًا  
بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ <sup>(١)</sup> وَفَعَلًا بِغَيْرِ فَاعِلٍ وَلَا سَبَبٍ أَضْلًا ، فَذَلِكَ مَا تُنْكِرُهُ  
قَوَاعِدُ <sup>(٢)</sup> الْمَادِّيِّينَ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ تَنْبِذُهُ عُقُولُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ :  
( أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ) <sup>(٣)</sup> .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا حَدَّثَتْ وَتَنَوَّعَتْ بِسَبَبٍ إِلَّا أَنَّ هَذَا السَّبَبَ  
لَيْسَ قُوَّةَ ذَاتِ شُعُورٍ وَاخْتِيَارٍ وَذَاتِ تَدْبِيرٍ وَحِكْمَةٍ ، بَلْ شَيْءٌ مَا اتَّفَقَ  
تَرْجِيحُهُ لِحِجَابٍ مِنْ جَوَانِبِ الْإِمْكَانِ ، فَهَذَا اعْتِرَافٌ فِي الْجُمْلَةِ بِوُجُودِ  
مُؤَثِّرٍ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ ذَاتِ الْمَادَّةِ وَمَاهِيَّتِهَا بَلْ هُوَ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنْهَا . وَهَذِهِ  
خُطْوَةٌ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَهَلْ تَزْعُمُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنِّي أَنَا وَأَنْتَ وَسَائِرُ هَؤُلَاءِ  
النَّاسِ الْأَحْيَاءِ الْمُفَكِّرِينَ أَثَرُ لَشَيْءٍ مُجَرَّدٍ عَنِ الْحَيَاةِ وَالتَّفَكُّيرِ ؟ يَا لِلْمَنْطِقِ !

(١) هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ التَّرْجِيحِ بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ وَالتَّرْجِيحِ بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ : فَالْأَوَّلُ  
هُوَ أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْءِ طَرَقَانِ مُمَكِّنَانِ فَيَحْصُلُ أَحَدُهُمَا بِغَيْرِ مُوجِدٍ .  
وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْءِ طَرَقَانِ مُمَكِّنَانِ فَيُوجَدُ أَحَدُهُمَا بِمُوجِدٍ لَا يُبْنَى  
عَمَلُهُ عَلَى حِكْمَةٍ ، بَلْ عَلَى مُجَرَّدِ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّحَكُّمِ . وَالْمَحَالُّ عَقْلًا  
هُوَ الْأَوَّلُ أَمَّا الثَّانِي فَلَمَّا تَبَيَّنَ بَقْعٌ مِنَ غَيْرِ الْعُقُلَاءِ وَمِنْ الْعُقُلَاءِ فِي بَعْضِ  
الْأَحْوَالِ كَمَا تَقَدَّمَ ( ص ٢٤٩ ) .

(٢) مِنَ الْقَوَائِنِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمْيَاءِ هَذَا النَّصُّ : « الْمَادَّةُ  
لَا تَحْدُثُ مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهَا » .

(٣) « سورة الطور / ٥٢ : ٣٥ - ك - » .

« إِنَّ لِبَعْضِ الْحَيَوَانِ صَنْعَةً تَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَخْتَلِفُ . كَالنَّحْلِ  
مَثَلًا تَبْنِي بَيْتَهَا دَائِمًا عَلَى شَكْلِ سُدَاسِيٍّ ، وَالْعَنْكَبُوتِ تَنْسُجُ خِيُوطَهَا  
مُسَطَّحَاتٍ ، وَدُودَةُ الْقَزِّ تُكْفِنُ نَفْسَهَا فِي لُفَافَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ بِيضِيَّةِ  
الشَّكْلِ . فَإِذَا قُلْنَا إِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ نَشَأَتْ عَنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ  
وَرَوِيَّةٍ مِنَ الْحَيَوَانِ صَحَّ لَنَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا ضَرَبٌ وَاحِدٌ لَا تَفْنُنُ فِيهِ .  
» وَأَنَّ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ مَا يَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ مُخْتَلِفَةٌ ، لَكِنَّهَا لَا تَعْتَمِدُ  
فِي اخْتِلَافِهَا شَيْئًا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ وَالْحِكْمَةِ ، كَمَا نَقْذِفُ بِأَنْقَاضِ الْبِنَاءِ  
إِلَى الْأَرْضِ فَيَسْقُطُ كُلُّ حَجَرٍ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ كَيْفَمَا اتَّفَقَ فَإِذَا رَأَيْنَا  
هَذِهِ الْأَحْجَارَ مُخْتَلِفَةً الْأَوْضَاعِ وَالْأَبْعَادِ صَحَّ لَنَا أَنْ نَقُولَ أَيْضًا أَنَّ  
هَذَا الْاِخْتِلَافَ جَاءَ بِمَخْضِ الْمُضَادَّةِ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا شُعُورٍ .  
« لَكِنْ هَلْ يُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي صَنْعَةِ الصَّائِغِ يَصْنَعُ السَّوَارَ عَلَى  
قَدْرِ الْمِعْصَمِ وَالْخَاتَمَ بِمِقْيَاسِ الْإِصْبَعِ ، وَهَلْ يُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي بِنَاءِ  
الْأَهْرَامِ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْفَنِّيَّةِ ؟ كَلَّا . فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ ، بَلْ  
أُخْرَى ، فِي هَذَا الْبُنْيَانِ الْفَخْمِ الَّذِي نُسَمِّيهِ ( الْكُونُ ) فَإِنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى  
مَا فِيهِ مِنْ كَثْرَةِ الْاِخْتِلَافِ دَقَّةَ الْوَضْعِ وَحُسْنَ التَّنْسيقِ وَالِاِئْتِلَافِ ،  
فَفِي تَنْوَعِ أَجْزَاءِ بُنْيَانِهِ آيَةٌ عَلَى اخْتِيَارِ بَانِيهِ ، لِأَنَّهُ صَنَعَ فِي سَقْفِهِ  
مَا لَمْ يَصْنَعْهُ فِي أَرْضِهِ ، وَجَعَلَ فِي أَسَاسِهِ مَا لَيْسَ فِي جَوَانِبِهِ ، وَجَعَلَ  
فِيهِ مُتَعَا شَتَّى ، وَأَسْكَنَ فِيهِ أُمَمًا لَا تُحْصَى ، ثُمَّ فِي اِئْتِلَافِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ



فِيمَا بَيْنَهَا . وَمُنَاسَبَةٌ كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا لِمَوْضِعِهِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ ، وَوَفَائِهِ بِالْحَاجَةِ الَّتِي تُطَلَّبُ مِنْهُ ، آيَةٌ عَلَى عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ ، بَلْ عَلَى لُطْفٍ وَعِنَايَةٍ وَرَحْمَةٍ ، وَمَنْ دَرَسَ عِلْمَ الْحَيَوَانِ وَعِلْمَ النَّبَاتِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ الْعُلُومِ الْكُونِيَّةِ وَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا يَزِيدُهُ بَصِيرَةً <sup>(١)</sup> .

« لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ لِلْبَيْئَةِ وَحْدَهَا أَثَرًا فِي هَذَا التَّكْوِينِ اتِّحَادًا وَاخْتِلَافًا ، فَفِي الْبَحْرِ مِنْ مُخْتَلَفِ صُورِ الْحَيَوَانِ عَجَائِبُ وَغَيْرُ ، وَفِي الْغَابَاتِ مِنَ الْأَشْجَارِ الطَّبِيعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ الَّتِي تَضْرِبُ بِعُرُوقِهَا فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَتُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَتَتَنَفَّسُ فِي هَوَاءٍ وَاحِدٍ ، ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَاتٌ فِي الشَّكْلِ وَالْحَجْمِ وَاللَّوْنِ وَالطُّولِ وَالْقَصْرِ ، بَلِ الشَّجَرَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ تُؤْتِي طَعُومًا مُخْتَلِفَةً مِنَ الثَّمَرِ ، وَالْغُصْنُ الْوَاحِدُ

(١) وَذَلِكَ مَثَلًا بِالنَّمْلِ فِي وَجْهِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ تَرْكِيبِ أَصَابِعِ الْإِنْسَانِ وَخُفِّ الْبَعِيرِ وَحَافِرِ الْفَرَسِ ، وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ مَنْقَارِ الطَّيْرِ وَقَمَرِ الْإِنْسَانِ وَخَرْطُومِ النَّمْلِ ، وَبَيْنَ الْأَجْزَاءِ الْمُضْمِيَّةِ وَالْدَّمَوِيَّةِ وَالْحَوَاسِّ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ فَلِلْإِنْسَانِ مَعْدَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلِلْبَعِيرِ ثَلَاثُ مَعْدَاتٍ ، وَلِسَائِرِ الْحَيَوَانِ الْمَجْتَرِّ أَرْبَعُ ، وَلَيْسَ لِلدَّوْدَةِ الْوَحِيدَةِ جِهَازٌ هَضْمِيٌّ أَصْلًا . لِلْإِنْسَانِ وَالْأَنْوَاعِ الْعُلْيَا مِنَ الْحَيَوَانِ قَلْبٌ كَامِلٌ ، وَلِلْأَسْمَاكِ نِصْفُ قَلْبٍ « أَذْبَنُ وَبَطْنَيْنِ » وَالْأَنْوَاعُ الدُّنْيَا مِنَ الْحَيَوَانِ لَا قَلْبَ لَهَا . عَيْنُ الْإِنْسَانِ ذَاتُ عَدَسَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَيْنُ الْبَعُوضِ وَالنَّمْلِ ذَاتُ عَدَسَاتٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا فَبِالنَّمْلِ فِي هَذَا وَأَمثَالِهِ نَجِدُ أَنَّ كُلَّ فَصِيلَةٍ قَدْ اسْتَوْفَتْ مَطَالِبَهَا الَّتِي بِفَتْحِهَا مَرَكَزُهَا فِي الْوُجُودِ ، فَلَا تَنْقُصُهَا آلَةٌ يَتَطَلَّبُهَا أُسْلُوبُ مَعِيشَتِهَا وَلَيْسَ فِيهَا آلَةٌ تَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهَا . بَلْ كُلُّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَذَ خَلْقَهُ الَّذِي يَنْاسِبُهُ .

يُخْرِجُ أَلْوَانًا شَتَّى مِنَ الزَّهْرِ ، كَمَا أَنَّ الرَّحِمَ الْوَاحِدَةَ تُثْنِجُ الْغَرَائِرَ الْمُتَفَاوِتَةَ وَالصُّوَرَ الْمُتَبَايِنَةَ مِنَ الْوَلَدِ ، وَلَوْ كَانَا تَوَآمِنَ لَكَانَ بَيْنَهُمَا اخْتِلَافٌ : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ )<sup>(١)</sup> .

فَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى الْوَسْطِ الطَّبِيعِيِّ شَيْئًا مِنَ الْإِنْتِخَابِ الصَّنَاعِيِّ نَجِدُهُ قَدْ يُجَدِّي قَلِيلًا فِي تَهْدِيبِ أَوْ تَنْوِيعِ بَعْضِ الْفَصَائِلِ الْحَيَوَانِيَّةِ أَوْ النَّبَاتِيَّةِ وَلَكِنَّهُ لَا يُجَدِّي فِي نَقْلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَنْ حَدٍّ مَحْدُودٍ ، وَنَحْنُ نَرَى النَّاسَ يَقْلَمُونَ أَظْفَارَهُمْ وَيَخْتَنُونَ أَوْلَادَهُمْ مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ وَلَمْ يَجِئْ يَوْمٌ يَسْتَغْنُونَ فِيهِ عَنِ الْخِتَانِ وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ .

« إِنَّ كُلَّ مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْبَيْئَةِ وَأُسْلُوبِ الْمَعِيشَةِ أَنَّ نَفْهَمَ وَجَهَ حَاجَةِ الْمَادَّةِ فِي تَكْوِينِهَا إِلَى جِهَازٍ مَا ، وَوَجَهَ مُلَاعَمَةِ هَذَا الْجِهَازِ لِحَاجَتِهَا وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِيهَا سَوْهَا وَيُجَهِّزُهَا بِجِهَازِهَا لَوْ كَانَ الَّذِي تَسْأَلُهُ لَا يَشْعُرُ بِحَاجَتِهَا ، وَكَانَتْ الْأُمُورُ تَجْرِي عَلَى غَيْرِ هُدًى يَقُودُهَا تَيَّارُ الْمُصَادَفَاتِ بَلْ هِيَ نَفْسُهَا لَا تَشْعُرُ بِمُسْتَقْبَلِهَا الَّذِي يَنْتَظِرُهَا حَتَّى تَطْلُبَ إِبَّانَ تَكْوِينِهَا مَا يَلَائِمُهُ .

« عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمُصَادَفَةُ هِيَ الَّتِي وَلَدَتْ هَذَا النِّظَامَ الْبَدِيعَ

يَغْيِرُ قَصْدَ فَمَا الَّذِي يُمَسِّكُهُ وَيَحْفَظُهُ ، وَهُوَ بَعْدُ عُرْضَةٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ  
لَمَّا لَا يُحْصَى مِنَ الْمُصَادَفَاتِ وَالْمُفَاجَأَتِ ؟ أَلَيْسَ لِأَنَّ هُنَاكَ عَيْنًا  
تُرَاقِبُهُ وَيَدَأُ تُمْسِكُهُ لَوْلَاهَا لَزُلْزِلَ وَاضْطَرَبَ أَوْ لَزَالَ وَفَسَدَ ؟ : ( إِنْ  
اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ  
أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ) <sup>(١)</sup> .

وَأَخِيرًا لَوْ أَنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي عَلَى غَيْرِ هُدًى يَفُودُهَا تَيَّارُ الْمُصَادَفَاتِ  
لَمَّا انْكَشَفَتْ أَسْرَارُ مُسْتَقْبَلِهَا الْبَعِيدِ لِأَحَدٍ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ جَازِمٍ ،  
لَأَنَّهُ لَا يَذِرِي كَيْفَ يَحُوطُهَا مِنْ ظُرُوفٍ مُؤَاتِبَةٍ أَوْ مُعَاكِسَةٍ ، لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ  
قَدْ كَشَفُوا لَنَا عَنْ طَائِفَةٍ صَالِحَةٍ مِنْ تِلْكَ الْغُيُوبِ فِي أَخْبَارِ صَادِقَةٍ  
مَصْدُوقَةٍ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَاحَ لَهُمْ بِسِرِّهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ صَانِعُهَا وَقَائِدُهَا  
الَّذِي رَسَمَ مَبَادِئَهَا وَغَايَتَهَا وَعَلِمَ مِنْهَا مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، ( الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ  
فَهَدَى ) <sup>(٢)</sup> وَالَّذِي ( يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ) <sup>(٣)</sup> ، وَالَّذِي يَسْمَعُ النُّجُوى ، فَمَا لِي  
لَا أُنَاجِيهِ وَهُوَ يَرَانِي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرَاهُ ، وَيَذْكُرُنِي وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَغْفَلَ  
عَنْهُ وَأَنْسَاهُ . ( أَفَى اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) <sup>(٤)</sup> ، آمَنْتُ بِاللَّهِ .  
آمَنْتُ بِاللَّهِ » .

(١) « سورة فاطر / ٣٥ : ٤١ - ك - » . (٢) « سورة الأعلى / ٨٧ : ٢ و ٣ - ك - » .

(٣) « سورة طه / ٢٠ : ٧ - ك - » . (٤) « سورة إبراهيم / ١٤ : ١٠ - ك - » .

- الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ - : أَنْ يَكُونَ فِي الْأَصُولِ وَيَجِيءُ بِشُبْهَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَيُؤَافِقُ الضَّرْبَ الْأَوَّلَ فِي صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُخَالِفُهُ فِي كَيْفِيَّةِ إِلْقَائِهِ وَتَلْقِيهِ فَالضَّرْبُ الْأَوَّلُ تَتَلَقَّاهُ النَّفْسُ بِالْقَبُولِ فَيَسْتَرْسِلُ عَلَيْهَا وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا . وَهَذَا الضَّرْبُ تَتَفَرَّغُ لَهُ النَّفْسُ وَتَنْزَعُ مِنْهُ وَتَتَلَمَّسُ مِنْهُ الْمَخْلَصَ فَيَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ .

وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ فِي الْحَقِيقَةِ ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ لِلْوَسْوَسةِ فِي الْإِيمَانِ بِصُورِهَا الثَّلَاثِ فَهِيَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهَا لَيْسَتْ إِلَّا نَزْعَةً أَوْ إِمَامَةً وَقَتِيَّةٌ يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ الْإِنْسَانِ . ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ يَنْسَخَهَا اللَّهُ مِنْ صَحِيفَةِ صَدْرِهِ وَيَرْبِطُ عَلَى قَلْبِهِ ، فَمَثَلُهَا كَمَثَلِ سَحَابَةِ الصَّيْفِ أَوْ عَارِضِ الطَّيْفِ سُرْعَانِ مَا تَنْجَلِي بِإِذْنِ اللَّهِ : ( إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ) <sup>(١)</sup> يَقُولُ : إِنَّ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ يَمُدُّهُمْ الشَّيَاطِينُ وَيَزِيدُونَهُمْ فِي الضَّلَالِ آتَاءً بَعْدَ آتٍ ، ثُمَّ لَا يَكْفُ هَوْلَاءُ الشَّيَاطِينُ عَنْ إِضْلَالِهِمْ أَوْ لَا يَكْفُونَ هُمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ ، فَهُمْ أَبَدًا فِي غَمْرَةٍ لَا تَنْجَلِي ، أَمَّا الْمُتَّقِي فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْفَيْئَةِ إِلَى رُشْدِهِ ، قَرِيبُ النُّهُوضِ مِنْ عَثَرَتِهِ .

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَى كَوْنِ الْوَسْوَسةِ فِي الْإِيمَانِ

(١) سُوْرَةُ الْأَعْرَافِ ٧ : ٢٠١ وَ ٢٠٢ - ك - .

لَا مَـةَ الْإِيْمَانِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْوَسْوَاسَ الْخَنَاسَ مَتَى آنَسَ مِنْ قَرِيْنِهِ  
تُعَدَّاداً لِقَبُولِ الشُّبُهَاتِ سَاقَهَا إِلَيْهِ تَتَرَى وَاسْتَرْسَلَ مَعَهُ فِيهَا حَتَّى  
فُؤِيَهُ وَيُضِلُّهُ ، فَعَدِمَ اسْتِرْسَالِهِ مَعَهُ وَوُقُوفُهُ عِنْدَ حَدِّ هَذِهِ النَّفْثَاتِ  
لَمُتَقَطَّةٍ بِالْكَلِمَةِ أَوْ الْكَلِمَتَيْنِ فِيمَا لَا يُوجِبُ رِبَّةً مُسْتَقَرَّةً فِي أَصْلِ  
بَنِ أَصُولِ الدِّينِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَيْسَ مِنْ إِغْوَائِهِ وَأَنَّهُ وَجَدَ فِيهِ مِنْ  
لَمَنَاعَةٍ مَا يَحْمِيهِ مِنْ سُلْطَانِهِ . وَهِيَ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ نِعْمَةٌ يُحْمَدُ اللَّهُ  
عَلَيْهَا . وَلِذَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي جَوَابِهِ لِلْسَّائِلِ الْمَذْكُورِ  
فِي حَدِيثِ « ابْنِ عَبَّاسٍ » : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ <sup>(١)</sup> »  
بَلْ إِنَّا إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي حِكْمَةِ ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِذِهِ الزَّلَازِلِ  
السُّطْحِيَّةِ وَجَدْنَا فِيهَا كَثِيراً مِنْ الذِّكْرَى وَالتَّبَصُّرَةِ ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ  
بِهَا أَنْ يَضْهَرَ قُلُوبَهُمْ بِنَارِ الْخَوْفِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ لِيَزْدَادُوا حِرْصاً عَلَيْهِ  
وَالْتِجَاءً إِلَى اللَّهِ فِي حِفْظِهِ ، إِذْ مَنْ ذَا الَّذِي يَرَى اللَّصُوصَ يَطُوفُونَ  
حَوْلَ حِصْنِهِ وَيَطْرُقُونَ بَابَهُ ثُمَّ يَأْمَنُ أَنْ يَلْجُوهُ أَوْ يَظْهَرُوهُ أَوْ يَسْتَطِيعُوا  
لَهُ نَقْباً ؟ فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَسَّهُ طَائِفٌ مِنْ لُصُوصِ الشَّيَاطِينِ

(١) وَهَمَّ « ابْنُ الْأَثِيرِ » - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَخَلَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةَ مِنْ حَدِيثِ « ابْنِ  
عَبَّاسٍ » بِحَدِيثِ « أَبِي هُرَيْرَةَ » ، كَمَا خَلَطَ صَدْرَهُ الْمَذْكُورُ آنِفاً بِحَدِيثِ  
« ابْنِ مَسْعُودٍ » وَعَزَّاهُ إِلَى رِوَايَةِ « مُسْلِمٍ » وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رِوَايَةِ « أَبِي دَاوُدَ »  
وَقَدْ تَبِعَهُ صَاحِبُ « التَّيْسِيرِ » فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . وَالصَّوَابُ مَا ذَكَرْنَاهُ .  
سنن أبي داود : ٦٢٣/٢ - كتاب الأدب - باب في رد الوسوسة .

أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أَنْ يَتَسَوَّرُوا مِخْرَابَ قَلْبِهِ وَأَنْ يَسْرِقُوا مِنْهُ أَنْفُسَ  
 مَا فِيهِ وَهُوَ جَوْهَرَةٌ إِيْمَانِهِ ، لِأَنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحَمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ  
 فِيهِ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَمَرَ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى بَابِ  
 الْحِصْنِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْتَحَهُ لَهُمْ وَيُمْكِّنَهُمْ مِنْهُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي  
 بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ الْقُلُوبِ وَمَعَالِيْقُهَا يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ فَمَنْ يَشَاءُ يُضِلُّهُ  
 وَيَخْتِمُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَمَنْ يَشَاءُ يَذْهَبْ عَنْهُ رِجْزُ « الشَّيْطَانِ » وَيُثَبِّتْهُ عَلَى  
 الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . فَإِذَا عَرَفَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ أَزْدَادَ هَضْمًا لِنَفْسِهِ ،  
 فَلَا يَشْمَخُ بِأَنْفِهِ وَلَا يَمُنُّ عَلَى اللَّهِ بِإِيْمَانِهِ ، بَلْ تَكُونُ هَذِهِ تَذَكُّرَةً لَهُ  
 بِسَالِفِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذْ هَدَاهُ مِنْ قَبْلِ الْإِيْمَانِ ، وَتَبَصُّرَةً لَهُ بِدَوَامِ  
 حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي عِصْمَتِهِ وَتَثْبِيْتِهِ ، فَيَزِدُّهُ التَّجَاءُّ إِلَى اللَّهِ وَحَذَرًا مِنْ  
 مَكْرِهِ وَبَرَاءَةٍ مِنْ حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ، وَإِذَا يَقُولُ  
 كَمَا قَالَ « إِبْرَاهِيمُ » - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ( لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ  
 مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ) <sup>(١)</sup> أَوْ كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ : ( رَبَّنَا  
 لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ  
 الْوَهَّابُ ) <sup>(٢)</sup> حَتَّى إِذَا انْكَشَفَتْ عَنْهُ تِلْكَ الْغَمَّةُ وَسَرَى عَنْهُ مَا كَانَ  
 يَجِدُ ، قَالَ : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ  
 هَدَانَا اللَّهُ ) <sup>(٣)</sup> .

(٢) « سورة آل عمران / ٣ : ٨ - م - » .

(١) « سورة الأنعام / ٦ : ٧٧ - ك - » .

(٣) « سورة الأعراف / ٧ : ٤٣ - ك - » .



وَالآنَ ، وَقَدْ تَمَّ الْقَوْلُ فِي بَيَانِ الْحَدِّ مَا بَيَّنَّ غَوَايَةَ الشَّكِّ وَوَسْوَسةَ التَّشْكِيكِ ، فَلْنَذْكُرِ الطَّرِيقَةَ الرَّشِيدَةَ فِي عِلَاجِ كُلِّ مِنْهُمَا أَخْذاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ .

أَمَّا شُبُهَاتُ الشَّكِّ فَعِلَاجُهَا الْفَرْعُ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي وَجْهِ حَلِّهَا مَعَ سُؤَالِ أَهْلِ الذِّكْرِ عَنِ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَقْلَعُهَا مِنَ النَّفْسِ : ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ) <sup>(١)</sup> ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، الْآيَةُ ) <sup>(٢)</sup> ( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ) <sup>(٣)</sup> ( فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ <sup>(٤)</sup> مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ) <sup>(٥)</sup> .

(١) « سورة يونس / ١٠ : ١٠٤ - م - » . (٢) « سورة الحج / ٢٢ : ٥ - م - » .

(٣) « سورة البقرة / ٢ : ٢٣ - م - » .

(٤) لَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ فِي شَكٍّ ، وَلَا كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى السُّؤَالِ ، وَإِنَّمَا افْتَرَضَ فِيهِ افْتِرَاضاً كَمَا يُفَرِّضُ الْمُحَالُ نَحْوُ : ( إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ) « سورة الزخرف / ٤٣ : ٨١ - ك - » وَذَلِكَ لِإِهْلَابِ حَمِيَّتِهِ وَزِيَادَةِ إِيقَازِ رُوحِهِ . كَمَا تَقُولُ لِلْوَائِقِ بِمَحَبَّتِكَ : « إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنْ مَحَبَّتِي لَكَ فَاسْأَلِ النَّاسَ » . هَذَا إِلَى مَا فِيهِ مِنَ اللَّطْفِ فِي تَعْلِيمِ الْأُمَّةِ بِمَعْلَلِ رَسُولِهَا قُدُوةً لَهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِهِ . مَعَ التَّعْرِيزِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُمْ بَلَّغُوا مِنَ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ أَمْرِهِ مَبْلَغاً يَجْعَلُهُمْ مَرْجِعاً لِكُلِّ سَائِلٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٥) « سورة يونس / ١٠ : ٩٤ - م - » .

وَأَمَّا وَسَاوِسُ التَّشْكِيكِ فَلَا يَقْمَعُهَا سِلَاحُ الْحُجَّةِ وَلَا تُرْهِبُهَا  
 الْمُنَاوَشَةُ بِالْجَدَلِ ، بَلْ ذَلِكَ مِمَّا يَهِيْجُ شَرَّهَا وَيَزِيدُ فِي أخطَارِهَا ، بَلْ  
 إِنَّ مُجَرَّدَ الْإِضْغَاءِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَفَتْحِ بَابِ الْمُنَاقَشَةِ فِيهَا  
 يُعَدُّ إِذْنًا لَهَا بِالتَّرَدُّدِ وَالْإِلْحَاحِ عَلَى النَّفْسِ فَتَنْمُو وَتُخْصِبُ وَتَتَّخِذُ  
 نَوْعًا مِنَ الْأَسْئَلَةِ لَا يَقِفُ عِنْدَ جَوَابٍ بَلْ كُلَّمَا سُدَّ أَمَامَهُ بَابٌ فَتُحْ  
 بَابٌ : أَحَقُّ مَا تَقُولُ ؟ أَمْوِقِنُ أَنْتَ ؟ أَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَخْدُوعًا ؟  
 وَهَذَا أَسْلُوبُ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ لَا يَخْضَعُ لِمَعْقُولٍ وَلَا مَنْقُولٍ ، وَلَا يَقْنَعُ  
 بِمُشَاهَدَةٍ وَلَا وَجْدَانٍ ، فَمَنْ أَضْحَى إِلَيْهِ أَفْضَى بِهِ إِلَى الْحَيَرَةِ وَالتَّشْكُكِ  
 فِي كُلِّ مَعْلُومَاتِهِ ، وَاتِّهَامِ عَقْلِهِ وَحَوَاسِهِ : ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ  
 السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ  
 قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ) (١) .

وَإِنَّمَا الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْوِجْدَانَاتِ يَتَرَكَّبُ مِنْ  
 ثَلَاثَةِ عَنَاصِرٍ :

( ١ ) : الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ وَسَاوِسِ الصُّدُورِ وَهَمْزَاتِ  
 الشَّيَاطِينِ .

( ٢ ) : مُرَاغِمَةُ ذَلِكَ الْوَسْوَاسِ ، وَالصَّيْحَةُ فِي وَجْهِهِ بِكَلِمَةِ  
 الْإِيمَانِ اسْتِخْفَافًا بِكَيْدِهِ .

(٣) : الإِعْرَاضُ وَالتَّلَهِّي عَنْهُ وَالِاشْتِغَالُ بِحَدِيثٍ غَيْرِهِ حَتَّى

يَذْهَبَ مَذْمُومًا مَذْخُورًا :

فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ (١)

هُكَذَا عَلَّمَنَا النَّبِيُّ أَنْ نَفْعَلَ إِذَا وَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرْوِيهِ « الشَّيْخَانِ » عَنْ « أَبِي هُرَيْرَةَ » : « فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ : « آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » (٢) وَفِي رِوَايَةٍ لُهُمَا : « فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَه » وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى (٣) « فَلْيَقُلْ : ( اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ) ثُمَّ لِيَتَفَلَّحْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أَحَدٌ (٤) ثُمَّ لِيَتَفَلَّحْ عَنْ « سِمَاكِ بْنِ الْوَلِيدِ » قَالَ : « سَأَلْتُ « ابْنَ عَبَّاسٍ » وَرَوَى « أَبُو دَاوُدَ » عَنْ « سِمَاكِ بْنِ الْوَلِيدِ » قَالَ : « مَا هُوَ ؟ » قُلْتُ : فَقُلْتُ : « مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي ؟ » قَالَ : « مَا هُوَ ؟ » قُلْتُ : « وَاللَّهِ ! مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ » قَالَ : « شَيْءٌ مِنْ شَكٍّ ؟ » وَضَحِكَ ثُمَّ قَالَ : « مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ حَتَّى (٥) أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ( فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ

(١) من شعر « ابن المعتز » انظر : « نهاية الأرب » ٩٦/٣ و « التمثيل والمحاضرة : ١٠٢ » .

(٢) « صحيح مسلم : ١١٩/١ و ١٢٠ - (١) - : كتاب الإيمان - (٦٠) - باب : « بيان الوسوسة في الإيمان » - الحديث رقم : (٢١٢) والحديث رقم : (٢١٤) .

(٣) عزاه « الخطيب التبريزي » في « المشكاة » إلى « أبي داود » ، ولم أقف عليها فيه .

(٤) « سورة الصمد / ١١٢ : الآيات : ١ - ٤ - ك - » .

(٥) أي حتى أنه لعمومه صح فرضه في حق الرسول تنزيلاً له منزلة الممكن .

يَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ (١) ، الْآيَةِ ) فَإِذَا وَجَدَتْ فِي نَفْسِكَ سَيِّئًا فَقُلْ .  
 ( هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢) ) (٣)  
 هَذِهِ الْمُقَاوِمَةُ السَّلْبِيَّةُ الَّتِي أَرَشَدَنَا إِلَيْهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ - بِإِزَاءِ الْوَسَاوِسِ الِاعْتِقَادِيَّةِ هِيَ الَّتِي أَرَشَدَنَا إِلَى مِثْلِهَا بِإِزَاءِ  
 الْوَسَاوِسِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَقَدْ شَكَّى إِلَيْهِ الرَّجُلُ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الْحَدَّثَ  
 وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : « لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا » (٤)  
 - يَعْنِي حَتَّى يَتَيَقَّنَ - رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » وَغَيْرُهُمَا وَقَالَ : « إِذَا  
 نُودِيَ (٥) لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ ... فَإِذَا قُضِيَ التَّثَوُّبُ أَقْبَلَ يَخْطُرُ  
 بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ فَهَنَاءُ وَمَنَاءُ وَذِكْرُهُ مِنْ حَاجَاتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ ،  
 حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَذْرِي - أَيَّ لَا يَذْرِي - كَمْ صَلَّى ! أَثَلَاثًا أَمْ  
 أَرْبَعًا ؟ فَإِذَا لَمْ يَذْرِ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّى فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ -

(١) « سورة يونس / ١٠ : ٩٤ - م - » . وَتَمَتُّهُ الْآيَةُ : ( الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ  
 قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ) .

(٢) « سورة الحديد / ٥٧ : ٣ - م - » .

(٣) « سنن أبي داود : ٦٢٣ / ٢ - كتاب الأدب - باب في رد الوسوسة » .

(٤) « صحيح مسلم : ٢٧٦ / ١ - (٣) - : كتاب الحيض - (٢٦) - : باب الدليل على أن  
 من يقن الطهارة ثم شك - الحديث رقم ٩٨ » .

(٥) انظر « صحيح مسلم : ٢٩١ / ١ - (٤) - : كتاب الصلاة - (٨) - : باب فضل الأذان  
 وهرب الشيطان - الحديث رقم ١٩ » .

رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » وَغَيْرُهُمَا « وَرَوَى « الإِمَامُ مَالِكٌ » عَنْ « الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ » أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ : « إِنِّي أَهَمُّ فِي صَلَاتِي فَيَكْثُرُ ذَلِكَ عَلَيَّ » .  
فَقَالَ لَهُ : « امْضِ فِي صَلَاتِكَ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ عَنْكَ ذَلِكَ حَتَّى تَنْصَرِفَ وَأَنْتَ تَقُولُ : « مَا أَتَمَمْتُ صَلَاتِي » <sup>(١)</sup> .

أَخْرَجَهُ « مُسْلِمٌ » وَ « أَبُو دَاوُدَ » : « مُسْلِمٌ » فِي « كِتَابِ الإِيمَانِ » ،  
بَابُ : « بَيَانُ الْوُسُوسَةِ فِي الإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا » وَ « أَبُو دَاوُدَ »  
فِي مِثْلِ هَذَا الْبَابِ مِنْ « كِتَابِ الْأَدَبِ » .



« تَمَّ الْكِتَابُ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى »

(١) « الموطأ: ٨٣ - (٤) - كتاب السهو - (١) - : باب العمل في السهو - الحديث رقم (٣) » .

الصفحة	صاحب الترجمة
٦٠	ابن عباس : (عبد الله) .
٢٠٤	ابن عمر : (عبد الله) .
٤٧٣	ابن عمرو : (عبد الله) .
١٩٥	ابن مسعود : (عبد الله) .
٤٥٠	أبو أمية الباهلي : (صدي) .
١٥٥	أبو ذر الغفاري : (جندب بن جنادة) .
٢٤٧	أبو الحسن الأشعري .
١٢١	أبو سعيد الخدري : (سعد بن مالك بن سنان) .
٤١	أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .
٢٤٧	أبو منصور الماتريدي .
١٣٧	أبو هريرة : (عبد الرحمن بن صخر الدوسي) : (عبد الله بن عمرو) .
٣٥٧	الأشج : المنذر بن عائد .
٣٠٩	أنس بن مالك ، الأنصاري الخزرجي .
٤٢	جابر بن عبد الله الأنصاري .
٢٢٧	الحسن البصري .
٢٧١	حميد بن عبد الرحمن الحميري .
١٦	خديجة بنت خويلد .
٤١٨	سفيان بن عبد الله الثقي .
٣٦١	الشريد الثقي : (مالك بن سويد) .
١٧٧	صهيب بن سنان الرومي .
٣٤٢	طلحة بن عبيد الله .